الأنباء
الثلاثاء 16 اغسطس 2016

نسيم الحرية

حكاية 4 أيام في تركيا
ترصد جوانب الحياة
بعد «15 يوليو»
(1 - 2)

إسطنبول ـ «الأنباء»
عاطف عيسى

مساء الجمعة 15 يوليو.. لم يكن ككل مساء في تركيا والمنطقة والعالم.

فقد حُبست الأنفاس واشرأبت الأعناق، وشخصت الأبصار، وساد الترقب.. وتباطأت عقارب الساعة.

الطائرات المقاتلة تظهر في أنقرة العاصمة.. والدبابات تخرج من ثكناتها وتتجول في شوارع المدينة الرئيسية، واسطنبول العاصمة التجارية والسياحية صار مطارها ورئتها الأولى مغلقا ومحاصرا.. وجسر البوسفور الرابط بين شطريها الأوروبي والآسيوي تحت سيطرة العسكر المنقلب.

بيان أول أعلن سيطرة الجيش على السلطة وتشكيل مجلس رئاسي و... و...، وظن الجميع أن الأمر انتهى، وان ديموقراطية واحدة من أهم بلاد المنطقة ذهبت أدراج الرياح، وعادت الهيمنة العسكرية.

لكن.. لم يكن لهذا المخطط أن ينجح، وفي تركيا شعب واع، تنسم عبق الحرية لسنوات بعد أن ذاق مرارة الطغيان عقودا، فلبى نداء رئيسه بالنزول للشوارع والميادين ومواجهة العسكر المنقلب والحفاظ على ديموقراطية بلده.. ومستقبل تركيا.

لم يبزغ الفجر، فجر السبت 16 يوليو إلا وقد اندحر الانقلاب وانتصر الشعب، وكسبت الديموقراطية الجولة.

وستظل هذه الليلة علامة فارقة في تاريخ تركيا الحديثة، فتركيا قبلها، غير تركيا بعدها.. لأيام بعدها، لم يبرح الأتراك ميادينهم وشوارعهم يرفعون علم بلادهم، وفي الوقت نفسه يكرسون جهدهم لعملهم وأعينهم وقلوبهم متيقظة.

ذهبنا الى اسطنبول نرصد المشهد بعد 20 يوما على الانقلاب الفاشل، نجول في الطرقات، ونزور الميادين، ونحادث الجماهير ونقابل المسؤولين، ونفتش عن المعلومة هنا وهناك.

يومان كاملان في اسطنبول كانا كافيين لإدراك حقيقة أن الشعب التركي أثبت تمسكه بحريته وديموقراطيته، وانه لم يعد هناك مجال للعودة الى الوراء، الى الانقلابات وجمهوريات الموز، فقد انطلقت تركيا منذ نحو 15 عاما نحو مصاف الدول المتقدمة، وأصبحت في المرتبة الـ 16 اقتصاديا ولا يمكن التراجع.

يومان تاليان قضيناهما في شريط ساحل البحر الأسود نرصد الأوضاع والأحوال في النائي من البلاد، وكانت النتيجة واحدة والحقيقة واضحة لا أثر ولا تداعي لهذه المحاولة الفاشلة. فالكل ماض في طريق ترسيخ وحدة تركيا وتكريس نهضتها وفي أوردو كان الختام، وكان بالفعل مسك الختام.

إسطنبول ... الجمال الحيّ

لقطة من فوق البوسفور

قلعة محمد الفاتح

على متن «التركية»، ومع تنفس نهار الجمعة، كنا نقترب من اسطنبول، تلك المدينة الرائعة، الغارقة في جمال الطبيعة التي حباها الله اياها، وكانت جائزة الدولة الإسلامية المترامية الأطراف في القرن الرابع الميلادي على يد الخليفة المؤيد محمد الفاتح، هضابها، وجبالها الخضراء المغلفة بضباب الصباح المتسلل على استحياء تلقي في النفس طمأنينة وسكينة، وتدفع العقل الى الاستغراق في تاريخ المدينة العريقة التي تشطر آسيا وأوروبا وتقف شامخة شاهدة على حضارات عديدة سادت الدنيا على مر مئات القرون.. شاهدة بمضيقها، وبحرها وآثارها وقصورها وجسورها.

انتبهنا على صوت رخيم: «نقترب من مطار أتاتورك.. استعدوا للهبوط».. أتاتورك، وجه تركيا بعد سقوط الخلافة العثمانية؟ والذي رفع راية العلمانية «بكل شدة وعنف» وطبق مبادئها «بكل قسوة وصلف»؟ هل مازال له في تركيا جذور ضاربة بعد أن فقدت «علمانيته» ذراعها وحارسها المتمثل في المؤسسة العسكرية، كما فقدت أو كادت سندها وظهرها المتمثل في القضاء، ووقف جزء من الإعلام مشككا في جدواها، واعتبرها قطاع من الشعب ماضيا كئيبا بعد أن رأى تركيا الحديثة تقارع أكبر دول العالم عسكرة وتقدما؟.

«الطائرة تهبط الآن في مطار أتاتورك».. هنا أو قريبا من هنا، حيث لامست العجلات أرضه، كانت قبل أسابيع تجري معركة لضمان هبوط طائرة الرئيس أردوغان في بداية المحاولة الفاشلة.

هنا بدأت الخطوة الثانية لإفشال الانقلاب، بعد أن خاطب جماهيره عبر «فيس تايم» لتهرع الى الشوارع، وتهب الى هذا المطار الهائل وتبسط سيطرتها عليه وتدحر القوة الانقلابية.

لا شيء تغير، ولا ملمح للمعركة، بسلاسة دلفنا الى بوابة المطار، لنسير في طوابير متوازية الى الجوازات، نفس الازدحام «السلس»، طوابير الى «الترانزيت» ومثلها، وأكثر الى الكاونترات المكتملة التي تستقبل القادمين بأريحية وابتسامة.

ورغم الازدحام، إلا أن الأمر يقضى بسلاسة، وفي دقائق وجدنا أنفسنا في عهدة فريق الخطوط التركية و«مس أزلم» تقودنا الى «ميني باص فخم» كان يقف أمام بوابة المطار.. هو هو نفس المكان الذي شهد الصدام بين الجماهير وعسكر الانقلاب، هنا وقع الضحايا، وأطلقت النيران، وسارت الدبابات، وهنا أيضا أو قريبا كان مسرح إحدى العمليات الإرهابية قبل وقوع الانقلاب الفاشل بأيام.

مرافقنا لم يضيع الفرصة، تحدث معنا طويلا عن مشاهداته للأحداث في هذا المكان حيث كان حاضرا، وكيف امتلأت الشوارع المؤدية للمطار بالسيارات والجماهير الراجلة في ساعة واحدة، ويشير الينا: هنا سقط أحد الضحايا، وهنا دارت معركة مع الجنود، وهناك أطبق أتراك على إحدى المدرعات وأسروا قائدها.

على هذا الجسر.. على مشارف اسطنبول كانت نقطة تفتيش عسكرية تمارس مهامها عندما اقتربت منها الجماهير.. شيئا شيئا فلم يجد الجنود بدا من المواجهة التي لم تستمر طويلا وهرب بعضهم، واقتيد الآخرون في سيارات الشرطة، كان حماسه مفرطا، يتحدث وكأن المشهد ماثل أمامه.

وطوال الطريق الى الفندق الواقع بالقسم الأوروبي بمنطقة تقسيم على ضفاف البسفور سجلت كاميراتنا، وأقلامنا جوانب المشهد في ساعات الصباح الأولى ليوم عمل جديد، عانينا فيه قليلا من «زحمة اسطنبول»، لكننا اندهشنا لهذا النشاط اللافت للأتراك وهم يسرعون الخطى الى محطات المترو الضخم، ومحطات الباصات المتعددة في مختلف شوارع المدينة فضلا عن آلاف السيارات الصغيرة التي تنساب الى الطرق الرئيسية.

لا نلحظ متسكعا، ولا نلمح متثاقلا، الحركة الدؤوبة تأخذ بالعينين هنا وهناك، تلاحق التفاصيل فلا تقدر على الإحاطة بها وسط الأبنية الضخمة والفخمة، والشوارع المزينة النظيفة، والخضرة التي تغطي المدينة، وكأنها «هضيبة» وسط شجرة باسقة مترامية الأغصان.

ليست هذه اسطنبول الغافية منذ ساعتين قبل أن يتنفس الصبح، هنا على ضفاف البسفور يتجسد الجمال الحي، لا شيء يخدشه أو يعكر صفوه، فزرقة السماء المطعمة بسحب بيضاء متفرقة تجري كجبال الثلج، تقابلها زرقة الماء المتدفق في المضيق الذي يزخر شيئا فشيئا بالسفن والمراكب الكبيرة والصغيرة، وعلى جانبيه القصور والمساجد والمباني الحكومية والفنادق.. والسفارات.. وأعلاها تتناثر المنازل وسط هضاب الخضرة الآخذة بالأبصار.

هل يبدو الطريق طويلا الى وجهتنا؟ أم هي تفاصيل الصورة حوالينا تصرفنا عن تلمسه والسؤال عنه؟

نعم.. ها قد وصلنا.. «الآن نبدأ» تعجب مرافقونا.. «بل الآن وقت الراحة».. لا.. لا وقت للراحة «قلتها في نفسي» وانسللت الى غرفتي وتجهزت على عجل لجولة على الأقدام في المنطقة المحيطة.. في تقسيم، تقسيم الشاهدة على أحداث عديدة خلال السنوات الأخيرة، وآخرها المحاولة الانقلابية الفاشلة.

على بعد امتار قليلة، أحد الشوارع والطرق الرئيسية، والمؤدي في نهايته الى ميدان تقسيم، أحد الميادين التي تشهد كل ليلة، وكل نهار، تجمعات الأتراك بأعلامهم الحمراء ولوحاتهم وأحيانا هتافاتهم، ثم منصتهم الليلية وكلماتهم وخطبهم الحماسية في مناصرة الديموقراطية.

في ساعات الصباح الأولى الحضور ليس كثيفا في الشارع، فالكل الى العمل، لكن الجولة فيه لحظت عدم وجود لرجال أمن إلا بشكل نادر، وقريبا من الميدان قسم للشرطة تقف أمامه بعض الآليات، وشرطيان يمسكان بسلاحيهما.

إذن لا شيء غريبا، والوضع طبيعي، ولا أثر ملموسا لأي تداعيات لما حصل ربما تتضح الصورة في المساء، عندما يبدأ الأتراك وغيرهم في التوافد الى الميادين والشوارع الرئيسية، خصوصا أن اليوم «الجمعة» وغدا السبت وبعد غد الأحد يومي راحة، وصدق ما توقعناه.

كان المشهد بعيد العصر وقريبا من المغرب مختلفا تماما.. هذه الشوارع المخصصة للمشاة إلا سيارات الشرطة، ربما لا تستطيع أن تسير فيها بسهولة.. آلاف البشر من كل سن، يقطعون الشارع كل الى حاجته، مئات المحال على الجانبين، ومئات المقاهي تدعو الرواد لقضاء السهرة في جنباتها، وعشرات المطاعم يدلف اليها المشتهون للأكلات التركية الشهيرة، شباب وشابات سافرات ومتسترات، زرافات ووحدانا، كلٌ يغني على ليلاه، لا سلطان لأحد على أحد، عازف على العود يلتف حوله بعض الفتيان، ونافخ في الناي ينصت له كهل على كرسي خشبي، وبائع الذرة يجول، وبائع «الصميط»

الموضأة الألمانية

تلة العرائس

عروس صغيرة